القاهرة.. ليلة دمعت فيها العيون

■ محمد الغربي عمران

هي ساعات قضيتها بعد عودتي من مسقط لأغادر إلى القاهرة مساء. وضعت ما حملته من كتب ,وكان عليّ أن أحمل بعض إصدارتي وعدداً من إصدارات المشهد السردي اليمني المتجدد إلى نقاد في مصر سيحضرون ملتقى القصة القصيرة جدا الذي سيعقد في مكتبة الإسكندرية من ثلاثة من ديسمبر وإلى الخامس منه, ومن تلك الإصدارات ما زودني بها كتابها وأخرى ابتعتها من مركز عبادي.

تغادر المصرية في الرابعة والربع قبيل الفجر.. رحلة مرهقة في هذا الوقت ,فلا أنا الذي نمت قبل الرحلة ولا أنا الذي أهنأ بنومي على الطائرة.. فعلى المسافر أن يكون في المطار قبيل الثانية بعد منتصف الليل.. أوضاع صنعاء مخيفة نهارا فما بالك بساعات بُعيد منتصف الليل. الشوارع خالية.. عربات قليلة في الاتجاهات المختلفة .. الساعة الواحدة كنت في المطار, صالة المطار على غير عادتها في حركة نتيجة لوصول عدة رحلات ومغادرة أخرى.. كان أمامي وقت حتى تقلع رحلتي , تمنيت أن يستجيب لي الأنترنت .. فتحت جهازي المحمول, حاولت لكنه أبى ,خدمات المطار رديئة.. وجوه كئيب, والطقس قارس. ففضلت أن أمارس هوايتي مراقبة وجوه الناس .أن أكتبها. يستهويني مراقبة الغريب منها.. صفوف مقاعد بلون رصاصي. رجل ضخم الجثة لفت انتباه من في الصالة , بمنظر شعره الطويل.. وخروص أذنيه المتدلية , لم تكن تعنيه له نظراتهم أو همساتهم. ظل يتحدث لمن حوله بلغة خمنت أن تكون تركية أو إيطالية. تركت المخرص بعد أن أكملت وزن حقيبتي متجها إلى صالة المغادرة.

فتاة يبدو أنها عربية شمالية..أو إيرانية تحمل ملامح مريم العذراء.. زاد جمالها طرحة سوداء حول رأسها ووجهها.. عباءة سوداء لف به قدها الناحل, تحادث رجل أسمر يعتمر قبعة زنجبارية, لغة غير عربية يتحدثان بها, امرأة على مقعد متحرك إلى جوارهما, تنهض الفتاة لتجلب لهما يشربانه, تنظر بحنو إليهما تواصلا حديثها بنفس اللغة, حين ارتفع صوت المذياع الداخلي لصالة المطار يدعو الركاب المغادرين إلى جدة سرعة.... نهض الرجل الأسمر ونهضت الفتاة ثم احتضنت المرأة التي على المقعد المتحرك بحنان ,لوحت للرجل دون أن تصافحه مودعة وقد أخذ بدفع المقعد نحو الداخل. بينما عادت الفتاة تجلس مع وحدتها كأن لا أحد حولها .

تلك المقاعد امتلأت بكائنات مغادرة في رحلات مختلفة البعض إلى القاهرة وآخرون على رحلة التركية .. ومجموعة على الأردنية.. يردد المكرفون نداءات متكررة لمتأخرين محتملين يحثهم الإسراع .

دوما ما نعيش لحظات استثنائية, فهاهي بعض مقاعد الطائرة وقد تسابق عليها من تسابق لنقف بين الكراسي طابور طويل حتى السلم بينما مضيفات الطائرة في جدل لإقناع من جلسوا على مقاعد ليست مقاعدهم.. تسعدني مثل تلك التجاوزات ومتابعة معالجة الأمر من قبل مضيفات حسنوات, يستمرئ البعض البلادة والجلوس بالخطأ على بعض المقاعد ويتمنى أن يطول الجدال معهن.

حين وصلت إلى رقمي C 23 كانت امرأة منقبة قد احتلته,أشرت عليها بكرتي بأنه مقعدي, بينما رجل وطفلان على المقاعد المقابلة.. بتر ذلك الرجل حديثي باستدعائها لتحمل أحد الأطفال على حجرها وتقعد جواره. كنت أود الاستمرار في مراقبة الزوجين وطفليهما لكن ذات الوجه المريمي لفت انتباهي جلوسها على مقعد ليس بالبعيد عن مقعدي.. أسعدني أن تكون على رحلتنا.. كنت أود مواصلة تأملي لها لكنه ملاك النوم وقد تحالف مع إرهاقي , نمت لأقل من ساعة حتى نبهتني إحدى المضيفات لفتح الطاولة لتضع وجبة خفيفة, بالفعل أخذت أتناول ما قدم لي. أنهض كي أرى المريمية تجلس جوار أحدهم لكنها تبدو في عالم آخر.

أعاود الجلوس على مقعدي أتابع من حولي الأطفال أخذوا بالصراخ في المقاعد المجاورة.. أقلب مجلة الشركة. أعاود النعاس رغم ضجيج ما حولي.

أصحو من جديد على صوت المذياع الداخلي ينبه إلى ضرورة إعادة المقاعد إلى وضعها الرأسي. وربط الأحزمة, التزمت لتحط الطائرة على مدرج المطار, نهضت مع من نهض بعد أن توقفت محركات الطائرة لألمح المريمية دون غطاء رأس أسود, لتبدو بشعر قصير وعنق رشيق, زادت مساحة بشرتها البيضاء اللبنية وقد لبست فوطة سماوي ,وقميص بنصف أكمام, تلك الرشاقة جعلت حركاتها كحركات راهبة دون سوادها ,ونظراتها لما حولها هي تلك النظرات الولهاء , تجر حقيبة صغيرة حين تحركنا بين الكراسي لنخرج, في حافلة المطار وقفت بين الزحام لا يعنيها ما حولها تتحرك بعفوية, سرنا في ممرات طويلة..سلالم ,وقفت أمام موظفي الجوازات صفوف طويلة, بحثت عنها بين تلك الوجوه.. لا أحد. لحظتها جزمت بأنها في رحلة ترانزيت إلى مدينة أخرى. كم تلك الهالة التي تمنح بعض الأروح تميزها جميلة.

كان مؤشر الساعة يشير إلى السادسة حين هبطت بنا الطائرة ظلمة حالكة.. بل أن الشمس ظلت محتجبة حتى السابعة -الثامنة بتوقيت صنعاء- جلست على أحد المقاعد انتظرا حقيبتي الصغيرة أن تظهر على سير الحقائب, فتحت جهازي المحمول لأجد النت في انتظاري ,تصفحت وتصفحت , رأيت حقيبتي تدور وتدور على سير الحقائب تركتها تدور في فلكها وأنا أدور مغتنما للنت .

عرفت وسيلة أصل بها حتى وسط البلد بجنيه واحد بدلا من ستين أو ثمانين جنيه للتاكسي.. عدة حافلات استحدثتها مصر للطيران تحمل الركاب ببلاش من أمام بوابة صالة الوصول إلى محطة حافلات عامة خلف المطار, ومن هناك إلى التحرير بجنيه.

أدهشتني شوارع القاهرة النظيفة..مشجرة.. هذه هي القاهرة تستعيد عافيتها بعد أن كانت في آخر زيارة لي –آخر أيام مُرسي - قد أهملت.. أرى شباب كثر على أرصفة شارع المطار الطويل ,يهرولون بأعداد كبيرة, الوان ملابسهم فرايحية.. أكثرهم بأجسام سمينة ,منظر مبهج وأنت ترى مئات المهرولين قبيل شروق الشمس.. منظر آخر حين دخلنا حي روكسي مجاميع تركب الدراجات الهوائية إناث كثر وذكور في رياضة صباحية مختلفة ..لم يكن من زحام للعربات فاليوم هو الجمعة.

ظللت أراقب ما حولي لأكتشف بأن بداخلي حيوان.. تسيره غرائزه وإن تصنع كل منا , نشترك جميعنا في حمل ذلك الحيوان بداخلنا, يظهر للحظة والرائع أننا سريعا ما نلجمه خجلا من أن يشعر به من حولنا.

كانت وجهتي عماد الدين.. هناك حيث الفنادق (بانسيونات) تراوح أسعارها بين ستين جنيهاً ومئة وخمسين جنيهاً. اتبعت نصيحة أحد الأصدقاء من الأدباء واتجهت إلى فندق عادة ما ينزل به, يحتل الطابق الثامن والتاسع والعاشر من عمارة قديمة, دفعت لموظف الفندق أجرة ثلاثة ليال قبل أن أعاين الغرفة, لأكتشف بأنها غرفة دون تلفاز أو حمام داخلي, ولا هاتف أو مكيف, الحمام في ممر مشترك.. على مضض تقبلت الوضع, ومع مرور الليل تخيلتها زنزانة في الدور العاشر.. والحسنة الوحيدة أن لها فرندة..أرى منها جبل المقطم ومنارة جامع الرحمن التي تطول لأكثر من ثلاثين دوراً.. أخرج الفرندة ليلا مع عشائي لأتأمل مدينة لا تتوقف عن الضجيج. تحت هيمنة المقطم ..أعوض نواقص خدمات الغرفة بذلك الارتفاع الذي يمنحني شعوراً جميلاً.. لكن ما أن أقفل الباب الزجاجي وأعود إلى فراشي حتى أكتشف بأني بحاجة إلى حمام ..وأن الطقس الشتوي بحاجة إلى مكيف يدفئ الغرفة...و وو .

أقضي وقتي متنقلا من شارع إلى آخر, ومن ميدان إلى ثان, وفي أول يوم اشتريت شريحة فودا فون من عربة عليها شعار شركة فودا فون تقف على أطراف ميدان الأوبرا القريب من العتبة. عدت إلى غرفتي أخرجت الأرقام من حقيبتي حاولت مهاتفة أحد الأصدقاء ليرد علي أحدهم بأن علي تزويدهم باسمي ورقمي القومي واسم جد أمي, عرفت بأن الصوت لأحد موظفي فودا فون.. وحين أخبرته بأن لدي جوازاً فأنا غير مصري وإني لا أتذكر اسم جد أمي قال لي أن أذهب إلى أحد مكاتب الشركة المنتشرة في القاهرة وهناك سيتم مساعدتي ..لتبدأ دوامة البحث في يوم جمعة. عاودت الاتصال مرة أخرى ليرد علي صوت أنثى بنفس الأوامر. وبنفس الكلمات أن أذهب إلى أقرب مكتب.. سرت من رمسيس إلى شبرى ,حين وجدت فرع الشركة شرحت للموظف اللابس أحمر ..أخذ أسمي ورقم الشريحة التي معي ودخل على جهز كمبيوتر أمامه ,ثم قال هذه الشريحة باسم واحد آخر.. أريته العقد وعليه شعار الشركة, قال مبتسما: عليك بشراء أخرى. لم أثق في ذلك الموظف, ففي العملية لعبة, لكني ابتعت شريحة أخرى ولم أخرج من مكتب الشركة إلا وقد اتصلت بأكثر من رقم لأتأكد من أن اللعبة مستمرة ..ليرد علي الصديق عبد الودود المطري..وهنا تأكدت بأن اللعبة انتهت. وأن الشريحة الجيدة صحيحة.

اتصلت بفرح بمن أود الاتصال بهم .كطفل لديه لعبته الخاصة.

هي جولات تزيدني حبا لهذا الشعب الرائع.. شعب يعمل ليل نهار من أجل لقمة عيشه.. وإن صادف من غبي في طريقهم فالعيب منه .. أسير كثيرا أحب إنسان هذه المدينة.. هي ورشة كونية كبيرة الكل يعارك الحياة. الكل في جري متواصل .

أذهب مقهى الهناقر في المجلس الأعلى للثقافة لأشرب فنجان قهوة. هناك حيث حدائق الأوبرا. ثم أعود عبر كوبري قصر النيل مشيا حتى التحرير وإلى وسط البلد مكتبة مدبولي والشروق. أن أزور دار أخبار الأدب, ثم الكورنيش حيث الهيئة المصرية للكتاب أبتاع من المعرض الدائم للهيئة نسخ من روايتي أحملها إلى الإسكندرية , أسير في الشوارع متداخل بروض الفرج , حتى محطة سكة حديد .

الموسكي مع نهاية النهار بزحامه الذي يذكرني بباب اليمن وسوق الملح. خان الخليل, الأزهر والحسين. في كل مكان زرته تحكم الشرطة قبضتها على المكان لتنتشر الأمن, وتنظم حركة عبور العربات. رجل الشرطة متيقظ . النظافة وقد بدأت تعود للمدينة. حركة الحياة..أخذت القاهرة بفضل أهلها تستعيد ألقها.الكل مستبشر خير رغم المنغصات.

أعود ليلا لأراقب القاهرة من فرندتي بالدور العاشر, تبدو مكتظة بالأنوار ..أراقب تلك المفرقعات البعيدة من علوي وأتذكر مفرقعات أعراس صنعاء وأحمد الله أنها أيضا هنا مفرقعات ملونة قد تكون لأعراس. وإن كانت هنا غريبة على القاهرة..الساعة الثانية عشرة والنصف وأنا أتابع وميض أضواء وجمال ليل القاهرة.

أكملت عشائي وأشعلت سيقار ابتعته من وسط البلد ..أشعلته كي أشعر بأني لا أقل أهمية من أي متخم بالمال رغم أني أعيش في زنزانة بستين جنية لليلة الواحدة.

منارة جامع الرحمن برمسيس جمعت بين فنون معمارية إنسانية عدة, بل ومن عصور مختلفة .. هناك زهرة اللوتس الفرعونية..والرموز الرومانية واليونانية.. وما يشبه الصلبان المسيحية .. والزخارف الإسلامية.. هي منارة رشيقة كقد حسناء أو صاروخ قبيل انطلاقه ..تشبه سيجاري الملتهب. هناك أربع ساعات ضخمة في المنارة..كل ساعة تشير عقاربها إلى توقيت مغاير.. تتوزع الساعات الاتجاهات الأربع .. لكنها جميعا معطلة منذ سنوات. الأضواء مسلطة باتجاه المنارة ..الأضواء تبين سماقتها ,توحي للرائي بأنها على وشك الإقلاع ,صاروخ يشق عباب السماء لكنها ليست كذلك رغم طولها المهول الذي يصل إلى ما يقارب المائة متر أي أكثر من ثلاثين دور.

طائرات تحلق تباعا باتجاه المقطم. هذا هو مطار القاهرة وطائراته بين هابطة وصاعدة لا تمر دقيقة إلا وتصعد نحو السماء أوتهبط طائرة.

بعيد مغيب الشمس ,لا أدري إلى أين قادتني قدماي.. كنت أقصد مقهى الحرية (باب اللوق) الساعة السابعة..سرت كثيرا في شوارع تزدحم بالمارة ومحلات مليئة بصنوف السلع, العتبة ثم انحرفت في شارع فسيح جنوبا..شباب وشابات يتقاطرون .. كل من في الشارع تحت الخمسة والعشرين..منقبات. لا أعرف إلا أني وصلت باب اللوق..مقهى الحرية كان مغلقاً. أناس يفرون من اتجاه التحرير ..عدت أعقابي باتجاه طلعت حرب..نفس المنظر كمامات ودموع وشهقات أحسستها في حرقان عيوني وحرقان قصبتي الهوائية. دمعت عيناي كثيرا.

إنها المظاهرات ليلا..أخبار عن منع الأمن المتظاهرين دخول التحرير..ليتجمعوا في شارع القضاء وطلعت حرب والشوارع المؤدية إلى التحرير..المحلات أقفلت أبوابها, مدرعات وتلوث في الهواء يثير الرعب. اضطررت أن أسير مسافة طويلة بعيدا عن مواطن الشغب.

الأيام القليلة في القاهرة , أصحو لأجد السحب لازالت تحجب الشمس. تظل صباحات القاهرة الشتوية ملبدة بالغيوم والطقس بارد لكنه يدعوك للخروج والمشي, فلا شمس ولا سخونة.

بعد ثلاثة أيام أغادر صباحا باتجاه إسكندرية.. ثلاثة أيام قضيتها في مدينة تضج بالحياة, تقاوم الرتابة, تحاول استعادة القها. هي القاهرة التي تتقبل كل غريب, تستوعبه تفرض عليه حبها, أينما تذهب تجد جمال الإنسان روعته جمال تعامله الكل مهموم بتلقيط رزقه الكل يعمل من أجل غد أكثر بهاء .وأنا على موعد بعودتي من الإسكندرية إليها.

وطن في فندق

• سلوى الإرياني

أتيت من قريتي أقود شاحنتي الصغيرة ، توقفت أمام أول فندق في أطراف صنعاء .كنت جائعاً ، منهكاً أكاد أرتمي أرضا جوعا ،بردا ،و نعاسا . سأنام بدون عشاء وغدا صباحا أصحو مبكرا لأجوب محلات البقالة في صنعاء ومحلات بيع الخضروات فيها لكي أبيع الشحنة الكبيرة من الطماطم التي أتيت بها من قريتي الصغيرة الغافية فوق كتف الجبل المثقل بالعطش والتشقق والصفرة. ثم بعد البيع أتناول وجبة غداء ممتازة وأعود إلى قريتي الحبيبة. سأشتري لابني سيارة تتحرك بالتكنولوجيا من بعيد ولزوجتي حقيبة يد مزينة بخرز، تفرح بها . أخيرا سأشتري الأرز والزيت والسكر وهو ما نفتقر إليه في القرية.

دخلت الفندق والدنيا ظلام ، أخبروني أن الكهرباء مطفأة لأنهم يضربونها في مارب. لا بأس ،لست أعيي لأنني لست سياسياً ولا مثقفاً لماذا هم يضربونها لكن لا ضير أنا معتاد على الظلام .دخلت على ضوء من ولاعة سجائري. كان فوق جدران الفندق فوانيس ومصابيح مستطيلة تُشحن وقت وجود الكهرباء. دفعت قيمة مبيت ليلة محذرا موظف الاستقبال أن شاحنتي الصغيرة وحمولة الطماطم التي جئت بها أمام مدخل الفندق وأن الحراس في الباب مسؤولون عن حراستها. صعدت لأرتمي على السرير. لم أستطع التعمق في النوم حيث كانت تصلني أصوات جيراني في الغرفة، شخصان يتحدثان عن تفجير سيقومان به في مكان شعبي. طار النوم من عيني، جلست على السرير فرأيت فأراً صغيراً تلاحقه قطة ثم ألتهمته. قمت أفتح الباب وأخرجت القطة متقززا من المشهد .بداية غير مشجعة! ثم ارتميت على السرير فغلبني النوم ولم أذكر شيئاً عن جيراني الذين كانا قد تكلما وما عادوا يتناقشون عن التفجير. في الصباح صحوت باكراً لأنني كنت أتضور جوعا وأدركت أنني محال أقوى على الصبر حتى الغداء فخرجت لأذهب بشاحنتي لشراء فول وزلابيا. فوجئت أن شاحنتي لم تكن بالباب. فركت عيني ولكن أيضا لم أجد لها أثراً. خمنت أن تعبي وإعيائي بالأمس قد أنساني أين تركتها فذرعت الشارع ذهابا وإيابا وأنا أعدو بانفعال حتىُ قطع الصندل وخرجت قدمي منه فواصلت البحث بقدم داخل الصندل والأخرى حافية. دخلت أسأل موظف الاستقبال الذي كان يغط في نوم عميق على مكتبه :-" يييييه ، أين الشاحنة والطماطم؟!" هززت كتفه فقام مذعورا، صاح في وجهي بصوت أعلى من صوتي .:_" ما دخلي؟! كيف توقظني بهذا الشكل؟ نحن فندق نقدم للزبون غرفة. لسنا مسؤولين عن حراسة الشارع. الشارع في الليل يمسي شارعا ويبات غابة! ما دخل الفندق بمتعلقاتك؟" كررت كلمته العربية الفصحى بغضب هستيري :-" أي متعلقات؟! هل تحسبني أضعت ميدالية مفاتيح يا بني آدم. أنا أسألك عن شاحنة صغيرة محملة بطماطم! ثم أين الحراس الذين شاهدتهم بالأمس؟" أجابني ببرود جعلني أرتعد كأنني أقف فوق قمة الجبل في قريتي في فصل الشتاء :-" يذهبون للنوم في بيوتهم، هل تريدهم أن يظلون في الشارع ليلا؟ أنت قروي لا تعرف." انهرت قاعدا على الأرض وقدمي حافية والأخرى داخل الصندل وتمتمت :- "أريد مقابلة المدير." أشار الموظف بأصبعه لغرفة المدير وهو يتثاءب مضيفا :-" لكنه لم يصل بعد." انتظرت حتى حضر المدير فدخلت إليه ولم أتذكر أنني بصندل واحد إلا حين رمقني بابتسامة أخفاها خلف أصبعه الذي مسح به أسفل أنفه. حكيت له ما جرى فلم يتمالك نفسه من الضحك. قال لي بكل برود جعلني أرتعد قشعريرة وبردا من جليد دماء سكان صنعاء :- " أضعت شاحنتك والطماطم، أريد أن أفهم لماذا تريد إقحام الفندق؟" أجبته بصوت غاضب وكسير :-" من ُأقحم إذن؟ الوالد في القرية أم من؟" صمت الرجل متفكرا ثم سمعته يحوقل. أضفت أنا قائلا :-" أنا من قرية كلها شرفاء، لا يسرقون السنبلة الملقية في الأرض، ما كنت أعلم أن سكان صنعاء أصبحوا هكذا لصوصا و إلا لكنت بت ليلتي داخل الشاحنة، أما الآن وقد حدث ما كنت أخشاه بماذا تشور علي، وجهني، أرشدني أنا غريب لا أعرف بني آدم واحد هنا." أجاب الرجل متعاطفاً :-" حسنا، استشعارا من الفندق بمصابك الجلل، سنستضيفك لمدة ثلاثة أيام لكي تستطيع الإبلاغ عن الحادثة ،هناك احتمال ضعيف أن تفيدك الشرطة." خرجت من عند المدير لأتصل بأبي لأبلغه بالمصيبة التي سقطت فوق رأسي فقال لي أن أبقى حتى إيجاد السيارة وبيع المحصول و إلا فإن الحادثة ستخدش رجولتي ونظرة المشايخ إلى، إلى جانب أن عمي قد يأتي لاسترجاع زوجتي من بيتي هي وأولادي. أستلقيت تلك الليلة وأنا أئن لأسمع ذات النقاش بين جيراني .شخصان يتكلمان عن تفجير فلم أتمالك نفسي من الذهاب إلى غرفتهما وطرقت الباب، حالفا يمين طلاق أن أثنيهما عن مخططهما المجنون! كانوا قد تكلموا تلك الليلة بإسهاب عن عبوات ناسفة وحزام ناسف وأموال سيستلمانها وكيفية رفع المبلغ الذي سيدفع لهما. فتحا الباب فأشرت بأصبعي الأوسط إلى عقلي صارخا في وجهيهما المذهولين :-" عاد شي به عقل؟" بدت على وجوههم ملامح الفزع وتمتما :-" كنت تتصنت علينا ؟" قلت مدافعا عن نفسي الأبية :-" ليس من شيم الرجال التصنت ،بل جدران الفندق رقيقة فسمعتكم رغما عن انفي! أما أنا فمجرد بائع أتيت من قريتي لأبيع الطماطم. غير انه تمت سرقة شاحنتي من باب الفندق." أمسك بي الاثنان. اخبراني أن لا فكاك من براثن العار الذي سيلحق بي حين أعود سيرا على الأقدام صفر اليدين. كان كلامهما صحيح. أخبراني أن لابد من شراء شاحنة أخرى والعودة بمبلغ يوازي ما كنت سأجنيه لو كان اللصوص تركوني أبيع محصولي. تفكرت في كلامهما ووافقتهما عليه لكن أين المال؟ شرحا لي أنني إن انضممت إليهما في المخطط التفجيري سأكسب قيمة الشاحنة والطماطم وقد أتزوج بثانية. شرحا لي بإسهاب أن التفجير هدفه إثبات أن الحكومة ضعيفة ليست جديرة بشرف حماية الشعب اليمني ومكتسباته. لم افهم ما هي مكتسباته هذه ولم اسأل حتى لا أظهر بمظهر القروي الغبي. قالا أن الجميع يجب أن يفجر لكي يثبت أن الحكومة لن تحرك ساكنا وأنها خانعة مائعة. أن الساكت عليها شيطان اخرس. قالا إن لم نفجر نحن سيفجر غيرنا من الشرفاء الأحرار. أيدتهم في كون الحكومة .....!!!!، غير أنني أعلنت حيرتي في حكم جواز قتل أبرياء لإثارة الشعب ليخرج متظاهرا ضد حكومة. ظلا طوال الليل يؤكدان لي بالأدلة أن الحكومة فاسقة وفاسدة ودللا على ذلك :- ألمْ تسرق شاحنتك من أمام الفندق يا رجل؟"

وافقت وانضممت إليهما في مخططهما الإجرامي بعد أن أفهماني أننا إن لم نفجر سيفجر غيرنا وينال شرف التفجير لما في مجاهدة حكومة فاسقة من أجر يدخلنا الجنة حيث - وهذا لعمري غاية الُمنى- تستقبلننا حور العين في مدخل الجنة حيث لا أحد يسرق منك شاحنة ولا طماطم ولا عم يأتي فينتزع منك زوجتك. كانا هم يخططان وأنا أكل، أشرب وأستحم. فإذا فتحنا التلفاز شاهدنا تفجيرات متعددة في جهات مختلفة من اليمن لا بل وفي العراق وتونس ولبنان ، كان زميلاي يلتفتان إلي لتوثيق نظريتهما قائلين :- " أرأيت؟ إنهم يفجرون حتى خارج اليمن. الكل يفجر. هل يعقل أن كل هؤلاء ليسوا محقين فيما يقومون به." كنت أغالب حجم الطعام الذي فاق حجم جوفي وأجيبهم :- " أتفق، لكن أنا فقط معترض لماذا لا نفجر الحكومة نفسها، ما شأن المساكين بذنوب الحكومة؟" فينهرانني حتى تكاد اللقمة تسد مجرى تنفسي فأمضغها بصمت وأستكين.

في الليلة الثالثة انتهت المدة التي منحها لي الفندق. أبلغني المدير أنني يجب أن أدفع أو أغادر. طمأنني زميلاي أنهم سيدفعان لي أجرة الغرفة ومأكلي ومشربي فتنفست الصعداء .في الليلة التالية كنت أتمشى داخل أروقة الفندق. فرأيت رجلين بالزي الخليجي والعقال. توقعت أنهما جاءا لزيارة أرض اليمن السعيد، أو أنهما يمنيان وعلى وشك الذهاب للعمرة. في الحالتين ما شاء الله عليهما. تلك الليلة سمعت صوتيهما، لم أصدق أذني. كانا يتحدثان عن تفجير أيضاً، الله؟! هل أصبح الأمر موضة تتسابق عليه كبريات الدول الثرية وينزلون المنتج للعرض هنا في اليمن أم ماذا؟ كنت أسمع بابهما يوصد ويفتح مرارا وتكرارا. كانا يتكلمان عن تفجير موكب مسئول وتفجير متزامن آخر لمبنى حكومي. راقت لي الفكرة وشهدت أنهم أذكياء... ذهبت لزميلي وطرقت بابهما لأخبرهم أن اختيارهم للسوق الشعبي اختيار غبي وأن الأذكياء يختارون مركز حكومي لكي تكون موجعة! فأخبروني أنني أنا الغبي لأن الحكومة لا أحساس لديها ولن يهزها تفجير مبنى من مبانيها أو مسؤول من رجالها لكن تفجير الناس سيثير غضب شعبي وسخط. صمت أتفكر؟! احترت ولم استطع التقرير غير أن حاسة ما غريزية أخبرتني أن التفجير في الأصل حرام. ثم كل هذه التفجيرات لضرب حكومة واحدة، كم عسىُ تبقى من هذه الحكومة ؟ لكن ما شأني أنا؟ أنا أريد استرجاع شاحنتي والطماطم ولا مطلب لدي سواهم.

في صباح اليوم التالي سمعت من غرفة في أعلى دور في الفندق أشخاصاً يتكلمون عن خطف بنات وتهريبهن لجارتنا اللدودة! اقشعر بدني، أما عاد في هذا الفندق نزلاء أبرياء نهائيا؟ مال هذا الفندق استنسخ ملامح الوطن؟ مال هذا الفندق يحوي ما يحويه الوطن من وحوش ضارية تحاول الهجوم على بعضها واقتناص ضعاف الخلق منها؟ مال هذا الفندق قاسي ،مر، صعب مثل العيشة فيك يا يمن؟ مال هذا الوطن يضم الخونة والعملاء والمرتزقة...ماله إذا دق بابه شريفُ سرقت منه شاحنته والطماطم؟ مال هذا الفندق كأنه أعمى لا يرى، منُ يبقي في غرفه ومن يلفظ للشارع؟ من يرفع شأنه ومن يعاقبه ويعزر به في كل شارع ،ليكون عبرة لمن يعتبر؟ مال هذا الفندق لا يضم ولا يحضن ولا يقبل جباه، ولا هو يجلد ولا يقص أيدي ولا يرمي في الزنزانات؟ مال هذا الوطن من دخله دخل، من خرج منه خرج، من خطط فيه، من نفذ فيه، من فجر، من دبر، من هدم، من عمر ...من زرع ومن أحرق أو اقتلع كلهم سواء. مال هذا الوطن ممسوح الحواس. مال هذا الوطن ما عاد ينجب لا ثوار ولا شعراء ولا أحرار ولا نبلاء ولكن أبالسة أشرار؟ لماذا؟ ماذا حدث لك يا وطني؟

في اليوم التالي أبلغني زميلاي أن غدا وقت الظهر موعد التفجير المخطط له. قالا لي أنني الليلة أترك غرفتي ، وأبات في غرفتهما على الأرض لكي أوهم الجميع أنني قد غادرت الفندق. في تلك الليلة ولأول مرة يطلعانني على تفاصيل التفجير. قالا أن المكان وسط بين سوق قات ومعرض يبيع الأثاث المستخدم. أبلغانني أنني من سيقوم بالتفجير وانه سيكون عن طريق حزام ناسف حول خصري النحيل. أفهماني أنني بمجرد أن أضغط الزر فإن الحزام يُفصل اتوماتيكيا عني فلاُ أصاب بأذى بينما يكون الانفجار مدويا. لم أقتنع وشعرت بالريبة، كيف افجر كل من حولي ولا أتفجر أنا؟ سألتهم فشرحا لي أنني غبي وأنهما سوف يدهنان جسمي بدهان يعزل أي مواد متفجرة او حتى شظايا عن ملامسة جسمي. صدقتهما لما فتحا علبة صغيرة وطلبا مني أن أشمها ، فوجدت رائحة نفاذة وقوية أيقنت أنها فعلا ستحمي جسمي مائة بالمائة. ثم قررت أن أكون داهية في الذكاء فطلبت استلام ثمن شاحنتي والطماطم مقدما، فقالا لي أن بعد الغد صباحا أكون في شاحنتي أقودها عائدا للقرية وفي جيبي ثمن الطماطم فأطمئن قلبي للكلام، ولم يفتني المطالبة بقيمة سيارة تتحرك من بعد لابني.

في ظهر اليوم الثاني بعد الدهن والتحزم بالحزام الناسف سلما عليَ سلام الأبطال !أخذاني إلى المكان وفي لمح البصر لم أرهما. تلفت يمين وشمال. رجال يقلبون القات بين أيديهم ويبايعون في السعر. في الجهة الأخرى رجال ونساء يحملون وسائد وفرش ديوان فوق شاحنة صغيرة. حملقت في الشاحنة ...نفس لون شاحنتي. اقتربت منها وأخرجت الكرت فوجدت أنه نفس رقم شاحنتي. حتى المقود مشروخ، أنها شاحنتي!! أمسكت بصدر السائق صائحا في وجهه :-" أين الطماطم يا سارق؟" نزل هو وأمسك بي وتعاركنا وهو يشهد الجمع الذي تجمع حولنا أنه سائق ليس إلا والشاحنة تخص صاحب المعرض الذي اشتراها بدوره من صاحب فندق. هل يعقل أن يكون غريمي هو مالك الفندق الذي نزلت فيه؟

لم يهن علي أن أفجر إذ كانت الشاحنة ستصبح قطعا صغيرة وسيموت الناس. أخبرته أنني أريد شاحنتي وعرضت على الناس بطاقة الملكية ،دفعني السائق ولطمني في وجهي وصدري وبطني فضغط زر التفجير.

فهل شاهدتمونا أشلاء على التلفاز يا أعدائي يا نزلاء الفندق؟